٤ — الغزالى

ابو حامد محمد بن محمد الغزالى ، كان يدعوه العامة بالغزال ، أكبر علماء الكلام لعهده وأحد أئمة المذهب الشافعى . ولد فى طوس إحدى مدن خراسان عام ٤٥٠ للهجرة (١٠٥٨ للمسيح) ودرس العلوم فى بلده ، ثم رحل فى طلب العلم الى نيسابور ، وظهرت عليه منذ صباه علامات الذكاء الخارق والنجابة النادرة . وكان علمه الواسع بعلوم الكلام ، ووقوفه على فنون الفلسفة ، سبباً فى اقبال نظام الملك وزير السلطان ملك شاه السلجوقى عليه ، فوكل اليه إدارة المدرسة النظامية التى أسسها ببغداد .

وكان الغزالى حينئذ فى الثالثة والثلاثين وله بين العلماء مرتبة رفيعة . وبعد سنين قليلة ترك المدرسة النظامية ، وقصد الى أداء فريضة الحج فى مكة ، ولما أتم هذا الفرض المقدس ، ألقى دروساً فى جوامع دمشق وبيت المقدس والاسكندرية ، وإذ كان بالاسكندرية أوشك أن يرحل الى المغرب ليقدم على يوسف بن تاشفين أمير مراكش أحد امراء المرابطين فأتاه نعى يوسف ، فعاد الى طوس وانقطع الى حياة الفكر ، وعاش عيش المتصوفة وانكب على تأليف الكتب ، وكانت غايته من وضعها تقرير امتياز دين الاسلام على غيره من الأديان ، وعلى الفلسفة ولذا سمى حجة الاسلام وزين الدين

وأشهر كتبه إحياء علوم الدين وهو كتاب فى علم الكلام والآداب مقسم الى أربعة أقسام : الأول فى الشعائر والاحتفالات الدينية والثانى فى القوانين الخاصة بأحوال الحياة الدنيوية والثالث فيما يهلك والرابع فيما ينقذ ، أى فى الرذائل والفضائل

ثم هجر التأليف وعاد الى نيسابور ، ليدير المدرسة النظامية ، ثم عاد الى طوس وأسس ملجأ للصوفيين (تكية) وقضى بقية أيامه فى العبادة والتأمل ، وقضى الى رحمة الله عام ٥٠٥ للهجرة (١١٦١ للمسيح)

أما المعلومات الكاملة عن حياته ، فقد أعطاها الموسيو دى هامير ، فى مقدمة كتاب « أيها الولد » فى الترجمة العربية الالمانية ، وهو كتاب فى الأخلاق من كتب الغزالى

إنما الذى يهمنا فى هذا الباب ، هو تاريخ حياة الغزالى الفكرية ، وسير دراسته والدرجة التى تنبغى له بين فلاسفة الاسلام ، وتأثيره فى فلسفة عصره ، وقد هدانا الى حل تلك المسائل الغزالى ذاته فى كتاب اسمه « المنقذ من الضلال » وقد شرح فيه حقائق الموجودات وحلل هذا الكتاب تحليلا كاملاً المسيو پاليا والموسيو شمولدرز فى مقالة على « مبادىء الفلسفة عند العرب » وقد نشر شمولدرز نص رسالة الغزالى العربى وترجمة فرنسية فيها بعض أغلاط ولكنها لا شك كافية .

وهذه الرسالة هى فى شكل جوابات على أسئلة وجهها اليه صديق فتكلم أولاً فى الصعوبة التى لقيها فى التمييز بين المبادىء والتعاليم الفلسفية المختلفة ، وفى معرفة الخطأ من الصواب ، وتكلم عن المساعى التى لم ينته من بذلها منذ سن العشرين فى سبيل الوقوف على الحق . قال و بعد أن درس مبادىء الفلاسفة الدينية والحكمية وتعمق فيها أخذ يشك فى كل شىء ، وسقط فى هوة الجحود المطلق وارتاب فيما يهديه اليه الحس ، الذى طالما يرشدنا الى أحكام يناقضها العقل ، كذلك لم يكن العقل كافياً لاقناع الغزالى لأن لا شىء يثبت صحة مبادئه ، وأن الذى نعتقده صواباً فى اليقظة بواسطة الحس أو العقل ليس كذلك إلاّ لعلاقته بالحال التى نحن عليها ولكن هل نحن متحققون من أن حالا أُخرى لا تتلو تلك وتكون بالنسبة لليقظة كنسبة اليقظة للنوم بحيث نعرف فى تلك الحال الحادثة أن كل ما حسبناه صحيحاً بواسطة العقل ، لم يكن إلاّ حلماً لا حقيقة له . وفى الواقع رَجع الغزالى عن جحوده ، ولكن هذا لم يكن بقوة العقل إنما فى اثناء بحثه عن الحقيقة ، انقطع للتعمق فى مبادىء المتكلمين والباطنية والفلاسفة والمتصوفين ، ولم تجد نفسه هداها إلاّ فى التصوف والتأمل والانجذاب الذى يعرفه الصوفيون . بيد أنه ليس للغزالى أثر ظاهر فى مبادىء الصوفيين ، ولكن أثره الأعظم هو فى تاريخ الفلسفة العربية فان جحوده الذى لم يظهره فى كتبه بشكل مبدأ ، خدمه ليطعن المبادىء الفلسفية طعنة مشؤومة

بين مؤلفات الغزالى التى عددها الموسيو هامر فى رسالته كتابان جديران بالنظر .

الكتاب الأول « مقاصد الفلاسفة » والثانى « تهافت الفلاسفة » ، أما كتاب المقاصد فهو تلخيص للعلوم الفلسفية شرح فيه المؤلف علم المنطق ، وما وراء الطبيعة ، والطبيعيات ولم يبتعد فى شرحه عن مبادىء أرسطو ، التى شرحها الفارابى وابن سينا وقد نُقل هذا الكتاب الى اللغة اللاتينية فى أواخر القرن الثانى عشر بواسطة «دومينيك جندسالفى» وطبع فى البندقية عام ١٥٠٦ م . بواسطة «برتوس ليشتنشتين دى كولونى» تحت اسم « منطق العرب وحكمتهم للغزالى » .

وقد يدهش من يرى الغزالى فى المقاصد يشرح مبادىء الفلاسفة التى يهدمها فى كتاب التهافت وقد ظن الموسيو ريتر فى كتابه (Geschichte der Philosophie) (تاريخ الفلاسفة ج ٨ ص ٥٩) أن الغزالى كتب المقاصد ، لما كان لا يزال قائلا بمبادىء أرسطو ولكن الحقيقة هى أن الغزالى لم يرد بالمقاصد إلا الاستعداد لهدم المبادىء التى شرحها شرحاً وافياً ، كما بين ذلك فى المقدمة التى لم تنشر فى كل النسخ الخطية اللاتينية وفى طبعة فنيس (البندقية) ولكنها موجودة فى نسختين خطيتين باللغة العبرية وفى نسخة لاتينية فى مكتبة السربون . وهذا ما قاله الغزالى فى المقدمة رداً على من سأله رد حجة الفلاسفة : «تسألنى يا أخى تأليف كتاب كامل واضح للرد على الفلاسفة وتبيين خطأ مبادئهم لتتقى بذلك الوقوع فى الخطأ ، ولكن هذا عبث قبل أن تعرف مبادئهم وتعاليمهم تمام المعرفة لأن الرغبة فى الوقوف على خطأ بعض الآراء قبل الوقوف عليها تمام الوقوف تعد خطأ ينتهى بالعمى والخلط . فظهر لى من الضرورى قبل الشروع فى نقض آراء الفلاسفة أن أضع كتاباً أشرح فيه ميول علومهم المنطقية والطبيعية والالهية دون التمييز بين الخطأ والصواب فى مبادئهم لأن غايتى هى شرح نتائج أقوالهم دون الاسهاب فى أمور زائدة عن الحاجة ولا علاقة لها بالبحث ، فسأكتفى بشرح مبادئهم مضيفاً اليها الأدلة التى يثبتون بها أقوالهم ، فغاية هذا الكتاب هى شرح مقاصد الفلاسفة ولهذا أخترت له ذلك الاسم » . ثم ذكر الغزالى أنه سيترك العلوم الالهية جانباً لاتفاق العامة على صحة مبادئها وأن ليس بها ما يحتاج الى النقض وكذلك مبادىء

المنطق هى على العموم صحيحة والخطأ فيها نادر، أما الطبيعيات فالحق فيها ممتزج بالباطل .

وهذا ختام الكتاب فى الأصل العربى والنسختين العبريتين : « فهذا ما أردنا أن نحكيه من علومهم المنطقية والالهية والطبيعية من غير اشتغال بتمييز الغث من السمين والحق من الباطل ولنفتتح بعد هذا الكتاب تهافت الفلاسفة حتى يتضح برهان ما هو باطل من هذه الجملة » .

وبعد هذا البيان الشافى، ليس مكان للعجب من شرح مبادىء الفلاسفة فى كتاب المقاصد . اما كتاب التهافت فغاية الغزالى منه هى نقض تعاليم الفلاسفة، بنقد عام يظهر ما فيها من التناقض، ويوضح مخالفتها للعقل، وهذا نص ختام كتاب التهافت « واذا أعترض علينا بأن انتقادنا لا يخلو من الريب، نقول إن بالنقد يتضح برهان ما هو صحيح وما هو باطل، فاذا عرضت صعوبة أمكن حلها بفحص النقد والاعتراض . إنما الذى نرمى اليه فى هذا الكتاب، هو أن نشرح مبادئهم وأن نقابلها بما ينقضها من الأدلة ولا نريد أن نكون على مبدأ منها، وليس مقصدنا أن نذكر أدلة على حدوث العالم، إنما هدم ما ذكروه من الأدلة تأييداً للقول بقدم المادة . وبعد الفراغ من هذه الرسالة سنشرع فى تأليف غيرها لاثبات الرأى الصحيح الذى غايته تشييد الحق، كما أن غايتنا من هذا الكتاب هى هدم الباطل »

وبدأ الغزالى مقدمة الكتاب بنقد أراء القائلين بآراء الفلاسفة، المرضين عن حكمة الدين ليثبت أن كل ما يقولون به مما يخالف قواعد الدين ليس له أساس .

ثم اسهب فى القواعد الأربع، التى اهتدى بها فى تأليف هــذا الكتاب، وبعد المقدمة شرع الغزالى فى نقض حجج الفلاسفة فى عشرين نقطة، ست عشرة منها فى الآلهيات وأربع فى الطبيعيات .

وأهم ما فى هذه النقط هو الفصل المتعلق بالمسببات، وملخص قوله فى هذا الباب يرجع الى مسألتين : الأولى انه اذا اجتمع أمران معًا فليس فيــه دليل قاطع على أن

الأول علة الثانى ، الثانية : اذا فرضنا صحة فعل بعض الظروف (تعلق أمر بأمر) بناء على قانون طبيعى ، فليس ينتج من ذلك أن الأثر يكون بذاته فى ظروف متماثلة حتى ولو كانت الأشياء متماثلة . فان القطن يمكن بارادة الله أن يتخذ شكلاً يقيه الحريق ، و بعبارة أخرى أن ما يسميه الفلاسفة بقوانين الطبيعة أو قاعدة العلل ، هو أمر يقع تبعاً لارادة الله ونحن نقبله كأمر واقع محقق لأن الله سبحانه وتعالى في سابق علمه علم مصير الأمور فعلّمنا اياه ، فليس هناك ، والأمر كذلك ، قانون طبيعى ثابت يقيد ارادة الخالق جل وعلا .

نقول ان بعض الفلاسفة ، مثل ابن رشد كانوا يعتقدون أن الغزالى لم يكن مخلصاً فى قوله ، وان الخلاف بينه و بين الفلاسفة ، كان على نقط محدودة ، انما أراد الطعن عليهم فى سائر النقط لتزداد به ثقة أهل السنة . وذكر موسى بن ناربون ، بعد أن ذكر رأى ابن رشد السابق فى بداية شرحه على المقاصد ، ان الغزالى كتب بعد الفراغ من تأليف التهافت ، رسالة صغيرة لم يعلم بها الا بعض المقربين وفيها ردود على ما وجهه من النقد الى مبادئ الفلاسفة ، وان هذا الكتيب يُسمى « رسالة وضعها أبوحامد بعد التهافت ليكشف عن فكره للحكماء وفيها مقاصد المقاصد واللبيب تكفيه الاشارة »

وفى هذا الكتاب أبحاث إلاهية ذات أهمية كبرى ولكن لغتها عويصة الفهم على العامة ، وقد بدأ هذه الرسالة بالكلام فى الدوائر العليا وحركاتها ونفوسها ، ثم تكلم فى المحرك الأول وفى صفاته ، ثم تكلم فى النفس ، وليس فى هذه الرسالة أثر لاحتقار الفلسفة كما فى التهافت انما يقيم الأدلة كأنه بعض الحكماء لا كالمتكلمين ، ويثبت بالحجة العقلية اموراً فى الآلهيات ، حاول نقضها فى التهافت . فانه يقول فى هذه الرسالة مع الفلاسفة بازلية الزمان وحركة الدوائر السماوية ، وفى ختام هذه الرسالة حرم الغزالى الاطلاع عليها الا على أهل النفوس القوية ، والعقول السليمة ، عملاً بقول النبى (ص) « خاطبوا الناس على قدر عقولهم » .

كتب ابن الطفيل رغم احترامه للغزالى ، يوضح اضطرابه وتردده فى مبادئه

(نقلاً عن كتاب حي بن يقظان صفحة ١٩ – ٢١) نبذة أولها «اما عن كتابات الامام الغزالى . . . . الخ » . ثم ذكر ابن الطفيل نبذة من كتب الغزالى ، مؤداها أنه ألف كتبًا باطنية ، لا يطلع عليها إلاّ فريق من الخاصة المقربين وان هذه الكتب ليست فيما وجد فى مكاتب الأندلس وأهمها كتاب المضنون به وهو موجود بصحبة أربع رسائل للغزالى فى المكتبة الوطنية بباريس (المكتبة الامبراطورية سابقًا) تحت عدد ٨٨٤ نسخ خطية وذكره العلامةشمولدرز فى مقالته ص ٢١٣ مذكرة ا بالهامش وفى هـذا الكتاب « المضنون به » أظهر الغزالى اتفاقه مع الفلاسفة على قدم العالم ويقول كقولهم بأن الذات العلية تعلم الأمور إجمالاً لا تفصيلاً أى تحيط بالكليات لا بالجزئيات ، وأنها مجردة عن الصفات ، ولكن بعض المؤلفين نفى نسبة مثل هذا الكتاب للغزالى ، لبعده عما كان يقول به حجة الاسلام فى أمهات كتبه (يراجع فهرست الحاج خليفة طبعة الموسيو فلوجل ج ٥ ص ٥٩٠)

وجملة القول أن الغزالى اذا كان له مبدأ خاص به فانه لم يهتد اليه إلاّ بالتأمل و بالانجذاب الذى حل به منذ تصوف ولا تكون نتيجة الانجذاب فى الواقع مبدأ فلسفيا . ثم أن الغزالى يعلق أهمية كبرى على العمل وهو يمثله فى كتابه « ايها الولد » بالثمرة والعلم بالشجرة . ومن أهم كتبه فى الأخلاق والحث على الفضيلة كتاب « ميزان الأعمال » طبع له تفسير عبرى فى ليبزيج عام ١٨٣٩ وناقله عن العربية المعلم ابراهيم ابن حسد اى الاسرائيلى الاندلسى

وأهمية الغزالى عند الافرنج هى فى جحوده العلوم الفلسفية و يقول علماؤهم أنه طعن الفلسفة فى الشرق العربى طعنة قاضية وكان يكون نصيبها فى الغرب كذلك لو لم تلق فى ابن رشد حاميًا لها أحياها قرنًا من الزمان

﴿ ايضاح عن الغزالى ﴾

(١)

لا شك فى أن هذا الفيلسوف الحكيم ، يعد من أعظم أعلام الفكر العربى الاسلامى ومن أئمة أهل البحث والنظر فى علوم الدنيا والدين، وقد عده كثيرون من مؤرخى الفلسفة والأدب من نوادر الدهر نبوغاً ونوراً . وقد كان من الفطاحل الذين زانوا القرن الخامس الهجرى بعد نهاية الصدر الأول ، وقد شاء أن يكون من تأليفه ذلك الكتاب الذى فيه احياء وانتهاء لأثمن آثار السلف الصالح، فلقبوه بحجة الاسلام بحق دون مغالاة أو مجاملة

أما عن اسمه فقد اختلفوا فى هل كان الغزالى بتخفيف الزاى أو تشديدها ، وقد بحثت هذه المسألة فى « شذرات الذهب » والعبر لشمس الدين الذهبي و « طبقات الشافعية » لعبدالرحيم الاسنوى فقرروا أن اسمه كان بتشديد الزاى، فقالوا الغزّالى كالعطارى والخبازى بتشديد الزاى والطاء والباء وهذه لهجة أهل خراسان فى غزّال وعطار وخباز بتشديد الحروف الوسطى . وجاء فى « طبقات الشافعية » أن أباه كان يغزل الصوف فلقبه مستفاد من صناعة أبيه ولكن السمعانى قال « أن لقبه مستفاد من نسبته الى غزالة وهى إحدى ضواحى طوس » ونحن نميل الى تعليل السمعانى واطلاق اللقب بتخفيف الزاى

وسواء أكان الوالد يغزل الصوف ويبيعه فى حانوته أم لم يكن ، فقد توفى تاركا ولديه محمداً (وهو ابو حامد) واحمد فى غضاضة الطفولة . وكان بلا ريب رقيق الحال فأوصى بهما صديقاً متصوفاً قام على تهذيبهما حتى استنفد تركة أبيهما . وقد شاءت الأقدار للغزالى أن يسافر ويرحل فى طلب العلم ككل الفلاسفة والحكماء والانبياء والمصلحين الذين لا تكون نفوسهم إلا بالآلام فى أوطانهم وفى اغترابهم . وقد صار الغزالى أنظر أهل زمانه . واستطاع أن يؤلف ويدرس ويفيد الناس فى حياة استاذه وهو فى مقتبل عمره ، وهو شبيه فى ذلك بابن سينا

(٢)

وما شاهدناه فى اتصال الفلاسفة السابقين . وهم الكندى والفارابى وابن سينا بالخلفاء والوزراء ، وما اتخذوه من ذلك وسيلة لنشر أفكارهم وترويج مبادئهم، نشاهده أيضاً فى حياة الغزالى ، فقد اتصل بنظام الملك وفخر الملك وعاش فى ظلال آل سلجوق. فكأن الفلسفة المسكينة كانت أبداً فى حاجة للاحتماء بقوة الدولة منذ بداية التاريخ ، وهذا ارسطوطاليس اليونانى والمعلم الأول كان يعيش فى ظل فيليبس المقدونى وأبنه الاسكندر . وكان فولتير

فى الأزمان الحديثة يعيش فى بلاط فردريك الاكبر، وكان جويته الالمانى العظيم فى بلاط امير فيمار، ولم تتحرر الفلسفة وأصحابها إلا فى حالتين ، حالة الفيلسوف القانع الذى يعيش من عمله الضئيل ليغذى الحكمة ، مثل سبينوزا الذى قضى حياته فى صناعة الساعات والتأليف ، والحالة الثانية حالة الفيلسوف الممول ، اما بميراث مثل ارثورشوبنهور واما بثمرات مؤلفاته مثل جون ستيوارت ميل، وهذا أندر ما يكون بين الحكماء فمعظم هؤلاء القوم فقراء يعيشون من ثمرة أفكارهم بالتدريس والكتابة ، مثل فردريك نيتشه وبرجسون وغيرهما

(٣)

بين كتب أبى حامد التى ذكرناها فى ترجمته كتاب « المضنون به على غير أهله » وقد وصفه بعض كتاب الافرنج بانه اعتراف الغزالى تشبيهاً له باعتراف جان جاك روسو، على أن هناك فرقاً جوهرياً بين الكتابين، فجان جاك روسو دون اعترافه شاملا لجميع شئون حياته المادية والمعنوية والعقلية ، ولكن الشيخ الغزالى جعل هذا الاعتراف قاصراً على حياته العقلية والقلبية ، وهو رسالة الى صديق له وصفه بانه أخوه وجعل هذا الكتاب جواباً على سؤال توجه اليه من هذا الأخ ، فقال فى استهلاله « فقد سألتنى أيها الأخ أن أبث اليك غاية العلوم وأسرارها، وأحكى لك ما قاسيته فى استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق مع تباين المسالك والطرق ، وما استجرأت عليه من الارتفاع عن حضيض التقليد الى يفاع الاستبصار، وما احتويته ثانياً من طرق أهل التعليم القاصرين لدرك الحق على تقليد الامام ، وما ازدريته ثالثاً من طرق التفلسف وما ارتضيته آخراً من طريقة التصوف، وما انحل الى فى تضاعيف تفتيشى عن أقاويل الخلق من لباب الحق، وما صرفنى عن نشر العلم ببغداد مع كثرة الطلبة ، وما دعانى الى معاودتى بنيسابور بعد طول المدة » .

والظاهر من هذه النبذة الافتتاحية أن الغزالى قاسى كثيراً فى استخلاص الحق ، وانه ازدرى الفلسفة وارتضى التصوف وهذا هو مفتاح حياته العقلية ، وظاهر من اعتراف الغزالى انه كان فى عنفوان شبابه منذ راهق البلوغ قبل بلوغ العشرين ، الى أن أناف على الخمسين أى قبيل موته بخمس سنين ، لانه توفى فى نصف العقد السادس ، يحاول أن يستكشف أسرار كل طائفة بحرية مطلقة لا فرق فى ذلك بين محق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع ، فجمع فى بحثه بين درس الفيلسوف ليقف على كنه فلسفته ، والمتكلم ليجتهد فى الأطلاع على غاية كلامه ومجادلته، والصوفى ليحرص على العثور على سر صفوته ، وأيضاً الزنديق المعطل والملحد الجاحد ليتجسس وراءه للتنبه لاسباب جرأته فى تعطيله وزندقته

(٤)

وهذه حرية فى البحث واستقصاء فى الدرس يدلان على سعة صدره وسمو فكره، إذ لا يمكن للمحقق ان يستوعب سبل الحقيقة بغير الجمع بين سائر مظاهرها . مما يقال للشىء وعليه كما كان شأن « قانت » فى كتابه الجليل « نقد العقل الصحيح أو العقل الصراح »

وقد كان هذا الشيخ الجليل الغزالى فى تعطش الى درك حقائق الأمور من اول أمره وريعان عمره ، وكان البحث وراء الحقيقة غريزة وفطرة وضعتا فى جبلته . ومما يجدر بالنظر فى نفسية هذا الفيلسوف انه مازال هذا دأبه وديدنه حتى انحلت عنه رابطة التقليد وانكسرت على العقائد الموروثة ، لأن مطلوبه كان العلم بحقائق الأمور . ومن امثاله التى ضربها فى رفعة قدر العلم فى نظره انه اذا علم ان العشرة اكثر من الثلاثة فلو قال له قائل لا بل الثلاثة اكثر بدليل انى اقلب هذه العصا ثعباناً وقلبها وشاهد ذلك منه ، لن يشك بسبب هذه المعجزة أو الكرامة أو الحيلة السحرية فى معرفته أن العشرة اكثر من الثلاثة ولم يحصل له منه إلا التعجب من قدرة هذا الذى قلب العصا ثعباناً ، فأما الشك فيما علم فلا ، ثم ثبت له أن كل ما لا يعلمه على هذا الوجه ولا يتأكده على هذا النوع اليقينى فهو علم لا ثقة له به ولا أمان معه ، وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقينى

(٥)

والغريب فى أمر هذا الفيلسوف أنه سلك سبيل الفلسفة الحسية قبل (دافيد هيوم) الانجليزى بستة أو سبعة قرون ، واذا علمنا أن دافيد هيوم كان له أعظم فضل فى تنمية فكر «عمانوئيل قانت» الالمانى الذى أقر فى كتابه بأن هيوم هو الذى أيقظه من غفلته، لعلمنا مقدار عقل الفيلسوف الغزالى بالنسبة لهؤلاء المحدثين الامجاد من أهل أوربا ، فان الغزالى فتش عن العلوم فوجد نفسه عاطلا من علم موصوف بهذه الصفة إلا فى الحسيات والضروريات، فقال الآن بعد حصول اليأس لا مطمع فى اقتباس المشكلات إلا من الجليات وهى الحسيات والضروريات ، فلا بد من إحكامها أولا ليتبين أن ثقته بالمحسوسات وأمانه من الغلط فى الضروريات من جنس أمانه الذى كان من قبل فى التقليديات

(٦)

ولما وصل الى الفلسفة ، قال أن الدهريين أول الفلاسفة الاقدمين . وانهم جحدوا الصانع المدبر العالم القادر ، وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه لا بصانع ولم يزل الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان كذلك كان وكذلك يكون أبداً

والصنف الثانى الطبيعيون وهم قوم اكثروا بحثهم عن عالم الطبيعة وعن عجائب الحيوان والنبات واكثروا الخوض فى علم تشريح أعضاء الحيوانات ، فزعموا أن النفس تموت ولا تعود ، وجحدوا الآخرة ، وانكروا الجنة والنار ، والقيامة والحساب ، فانحل عنهم اللجام وانهمكوا فى الشهوات انهماك الانعدام والصنف الثالث وقد وصفهم الغزالى بانهم الالهيون وهم المتأخرون ، منهم سقراط وهو استاذ أفلاطون ، وافلاطون استاذ ارسطوطاليس ، وارسطوطاليس هو الذى رتب لهم المنطق وهذب العلوم وخمر لهم ما لم يكن محمراً من قبل ، وانضج لهم ما كان فجاً من علومهم ، وهؤلاء الالهيون ردوا على الصنفين السابقين وهم الدهريون والطبيعيون ، وأوردوا فى الكشف عن فضائحهم ما أغنوا به غيرهم ، ثم رد ارسطوطاليس على أفلاطون وسقراط ومن كان قبله من الالهيين رداً لم يقصر فيه حتى تبرأ عنهم جميعاً

ومن العجيب أن الامام الغزالى مع اعترافه بفضل فلاسفة الاغريق لا سيما ارسطو ، فانه عاب على الفلاسفة الاسلاميين اتباعهم إياه ، وذكر أن ابن سينا والفارابى لم يقم بنقل ارسطو من فلاسفة الاسلام أحد كقيام هذين الرجلين . وكان هذا بالطبع قبل ظهور ابن رشد ولو أدركه الغزالى لفضله عليهما وان كان لهما فضل السبق والتقدم

(٧)

ولما فرغ الغزالى من النظر فى العلوم الفلسفية وقبل منها ما قبل ، وزيف ما زيف شعر بأن علومهم غير وافية بكمال الغرض . فاتجه نظره الى البحث فى مذهب التعليم وغائلته ولكنه قبل الشروع فى درس هذا المذهب وصل الى ما وصل إليه «عمانوئيل قانت» من أن العقل ليس مستقلا بالاحاطة بجميع المطالب ، ولا كاشفاً للغطاء عن جميع المعضلات وبهذه العقيدة الجديدة التى تعد المرحلة الثانية فى تكوين عقل الغزالى ، فان المرحلة الأولى كانت التقليد ، والثانية كانت البحث فى أقوال المتكلمين والفلاسفة ، أخذ يدرس مبادىء الطائفة التعليمية فابتدأ بطلب كتبهم كما فعل فى كتب الفلسفة ، وترتيب كلامهم ورتبه ترتيباً محكماً مقارنا للتحقيق ، واستوفى الجواب عنه حتى أنكر بعض أهل زمانه من العلماء عليه مبالغته فى تقرير حجتهم ، وقالوا ان هذا سعى لهم أى لطائفة التعليمية وانهم كانوا يعجزون عن نصرة طائفتهم لولا تحقيق الغزالى وترتيبه .

(٨)

وليس هذا الاعتراض بين علماء الاسلام حديثاً ، فقد أنكر احمد بن حنبل على الحارث المحاسبي كتابه فى الرد على المعتزله ، فأجابه الحارث بأن الرد على البدعة فرض

فقال ابن حنبل « نعم ولكنك حكيت شبهتهم أولا ثم أجبت عنها فلم تأمن أن يطالع الشبهة من تعلق ذلك بفهمه ولا يلتفت الى الجواب أو ينظر اليه ولا يفهم كنهه »

وما ذكره ابن حنبل حق ولكن فى شبهة لم تنتشر ولم تشتهر ، أما اذا انتشرت فالجواب عنها واجب ولا يمكن الجواب إلا بعد حكاية الشبهات على حقيقتها كما فعلنا فى كتاب « الشهاب الراصد » الذى جعلناه رداً على موضوع الشعر الجاهلى

ويظهر لنا أن الغزالى لم يكن مدفوعاً الى الرد على مذهب التعلم من تلقاء نفسه فقط بل كان هناك دافع سياسى، لانه بانتشار مذهب التعليمية شاع بين الناس تحدى هذه الطائفة بمعرفة معنى الامور من جهة الامام المعصوم القائم بالحق، ويظهر أن الخليفة فطن الى ما يتهدد مركز الخلافة من شيوع هذا المذهب فكلف الغزالى بالرد عليهم ، فقال الغزالى فى حكاية هذا التكليف ما نصه « ثم اتفق ان ورد علىّ أمر حازم من حضرة الخلافة بتصنيف كتاب يكشف عن حقيقة مذهبهم فلم يسعنى مدافعته وصار ذلك مستحثاً من خارج ضميمة للباعث الاصلى من الباطن » وهذا ألطف ما يقال فى حسن التعليل إذ الظاهر من مذهب التعليمية أنه مزيج من السياسة والشريعة. والسياسة فيه أظهر وقليل من الفلسفة اتخذه أربابه ترويجاً لمذهبهم ليصبغوه بصبغة الحكمة فاقتدوا ببعض أقوال فيثاغور

فلم يكن هذا البحث يخلو من رائحة الفلسفة لأن التعليميين لما عرضت لهم اشكالات لم يفهموها ولم يحلوها ، واحالوها على الامام الغائب ، قالوا انه لا بد من السفر اليه وضيعوا عمرهم فى طلب المعلم وفى التنجع بالظفر به

(٩)

وعلى كل حال فان هذا البحث الاخير وجه الغزالى الى ما كان مخلوقا له حقا وهو طريق الصوفية ، فأقبل عليه بهمته وكان حاصل علمهم قطع عقبات النفس والتنزه عن اخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل بها الى تخلية القلب عن غير الله . وكان العلم ايسر من العمل فقرأ كتبهم وطالع رسائلهم وأهمها : كتب ابى طالب المكى ، والحارث المحاسبى والمأثور عن الجنيد والشبلى والبسطامى . وحصل الغزالى كل ما يمكن تحصيله من طريقتهم بالتعلم والسماع ، الى ان ظهر له ان أخص خواصهم ما لا يمكن الوصول اليه بالتعلم بل بالذوق والحال وتبدل الصفات ، فكم من الفرق بين ان يعلم الانسان حد الصحة وحد الشبع وحد السكر وأسبابها وشروطها . وبين أن يكون صحيحاً وشبعان وسكران

وكل باحث فى حقيقة المتصوفين يعلم يقيناً أنهم ارباب احوال لا اصحاب اقوال

(١٠)

على ان الغزالى الذى رأيناه يعجب بمعجزة قلب العصا ثعباناً ولا يجعلها دليلا أو وسيلة لانكار ما ثبت فى نفسه من طريق العلم اليقينى ، نراه عند ولوجه باب التصوف يقول انه قد حصل له من العلوم التى مارسها والمسالك التى سلكها فى التفتيش عن العلوم العقلية والشرعية ايمان يقينى بالله تعالى وبالنبوة وباليوم الآخر وان هـذه الاصول الثلاثة من الايمان كانت رسخت فى نفسه لا بدليل معين مجرد أى كما رسخ فى نفسه ان العشرة اكثر من الثلاثة ، بل بأسباب وقرائن وتجاريب لا تدخل تفاصيلها تحت الحصر وكان بحكم السن وانقضاء العمر فى مكارم الاخلاق وفضائل المجاهدات ظهر عنده ان لا مطمع له فى سعادة الآخرة الا بالتقوى وكف النفس عن الهوى ، وان رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافى عن دار الغرور والانابة الى دار الخلود والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى وان ذلك لا يتم الا بالاعراض عن الجاه والمال والهرب عن الشواغل .

(١١)

وقد عرضت تلك المشكلة للغزالى وهو فى قمة مجده منغمس فى العلائق وقد احدقت به من الجوانب ، وأهم اعماله اذ ذاك التدريس والتعليم والباعث عليهما طلب الجاه وانتشار الصيت ، فلم يزل يفكر فى العزم على الخروج من بغداد لمفارقة تلك الاحوال ستة اشهر من رجب سنة ٤٨٨ هجرية الى آخر تلك السنة حتى مرض ويئس الأطباء من شفائه فخرج مرغماً مضطراً وهو يظهر انه مسافر الى الشام حذراً من ان يطلع الخليفة واصحابه على عزمه وهو ان لا يعود الى بغداد ابداً ، ثم دخل الشام وأقام بها سنتين فى العزلة والخلوة والرياضة ثم دخل الى بيت المقدس واختلى فى الصخرة ثم سار الى الحجاز ثم جذبته دعوات الأطفال الى الوطن ، ودام على ذلك مقدار عشر سنين وانكشفت له فى أثنائها امور لا يمكن احصاؤها واستقصاؤها ، وخلاصتها التى يجوز الانتفاع بهـا هى انه علم يقيناً ان الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة ، وان سيرهم احسن السير، وطريقهم اصوب الطرق ، واخلاقهم ازكى الاخلاق

(١٢)

وظاهر من هذا ان الغزالى لم يكن فيلسوفاً عقليا ، انما كان حكيماً دينياً بالفطرة ، وانه اتخذ العلم والعقل والشرع ذاته وسيلة للوصول الى الحال التى هيأته لها الطبيعة ، على ان هذا لا يمنعنا من القول بان عقله النادر المثال لدى مروره بالفلسفة اليونانية والعربية أفادها واستفاد منها ، وهذا ظاهر من مؤلفاته التى ذكرناها لا سيما « مقاصد الفلاسفة » و « احياء علوم الدين » و « تهافت الفلاسفة » الذى سيرد الكلام عليه بالتفصيل فى عرض الكلام على ابن رشد وهو الفيلسوف الاسلامى الوحيد الذى رد عليه بكتاب مثله .